رسائل إلى "السفير"

جبل عامل: تنازع التوحيد والطائفة

« اما القضاة العلماء فقد كانوا على نزاهة ما فوقها نزاهة ، وسلطتهم هي السلطة العليا التي تحنى لها الرقاب ، وتتطأطأ لها الرؤوس ، ولم يكن يجسر زعيم قط ، مهما عظم شأنه وكبر مقامه وتوفر ماله وجنده ، على مناواة العالم او رد حكمه الذي لم يكن سلاحه وجنده الا تقوى الله والزهد والنزاهة والبعد عن زخارف الدنيا ».

ص ١٠٥ تاريخ جبل عامل ـ محمد جابر آل صفا

لفترة خلت بدا دور علماء جبل عامل مغيبا منسيا ، يتناوله الدارسون والباحثون والمهتمون على هامش الحياة ، او على الاكثر احد التعبيرات الثقافية .

لكن اطلالة على التاريخ نلحظ مسارا آخر يبرز كعامل خبط يوحد الجماعة ويحفظ تماسكها واستمرارية وجودها ، يربطها بالنص والشرع ، الذي ينزع لوحدة العالم حاملا دعوة التوحيد ، المتفلتة من حدود الوطن والجغرافية عبر ممارسة حية لا تنفك تربط الجماعة بولاية الله ورسوله واهل البيت (ع) فعلا جهاديا يجدد وهج العقيدة وديمومتها في صون الحياة صافية ، ينقيها من الفعل والعمل غير الاسلامي في حياتها .

رغم محاولات اخراج التشيع في جبل عامل من دائرة الشرع الى العشيرة (الموسعة) والطائفة ، تظل قوة الشرع الممثلة بالفقهاء اقدر على لجم شردات السياسة وارجاعها الى العرين ، تبقى محاولات الخروج خفيفة ، وقوة الضبط اشد ، شهد جبل عامل محاولات كثيرة للتملص والتحايل على ضوابط الشرع باشكال مختلفة ، عبر التجلبب برداء الشرع والدين ، لكن الجلباب يظل هشا يكشف هشاشة الاجتماع خارج الشرع ، والقابل للتشتت كونه اجتماعا خارج النص والتوحيد ، يحاول ان يخرج المذهب الى العشيرة والطائفة او على الاصح ان يضيق الحدود .

يعاند الفقيه العالم المجتهد من سارق يلبس عمامته ، يدعي التمثيل ، لكن الادعاء يظل عاجزا عن لعب دور الاصل في معادلة صعبة ، ان يصير الاجتماع على اصل هو غير اصل الشرع ، ان يصير الشرع محدودا تابعا يفصل للزعامة ما يناسبها من المقاييس والفتاوى ...

لكن هذا يخرج التشيع من كونه امتدادا لنهج جهادي في الحياة يرفض الخضوع والتعبد لغير الله ، مهما كانت التضحيات ، عندها لن يبقى التشيع تشيعا ، يصير شيئا آخر ، اجتماعا عشائريا منغلقا خاليا من دعوته الدينية مهدما لها في آن .

لهذا كانت كل محاولة للخروج على الشرع تبدو مهددة بوجودها ، ضعيفة ، نجاحها مرحلي ، مرهون استمرارها بعجز الفقهاء واستيعابهم كتابعين موظفين ، مع ان اي اجتماع على المصالح مهدد بالانفراط مع اختلاف المصالح والتنازع على التركة بين الورثة .

لكن حركة الفقهاء تبدو غير مفصولة عن قوى القمع التي تحد من نمو الشرع ليلعب دوره الى المدى الاقصى في الحياة الاسلامية ، في حين ان نجاح قوى التفلت من ضوابط الشرع مرهونة الى حد بعيد بارتباطها بعوامل خارجية (الدولة ـ الوظيفة ـ الدولة الخارجية) حيث يستمر تجاذب الدولة (الخارجية والداخلية) وسعيها لايجاد سلطه بديلة خارج الشرع يتعارك مع الجماعة المنضبطة على الشرع .

محاولات الخروج على الشرع وضوابطه غير موحدة الصنوف ، تتوزعها اهواء ومشارب شتى ، توجهات تحاول جاهدة التوحد على المصلحة ، والمصلحة قد تفرق غدا ما تجمعه اليوم ، كما تفرق الزعامة اخوة الاخوين ، وحلفاء اليوم دون ان ننسى اصابع الدول ومالها في هذا الامر .

الاجتماع خارج الشرع عقد مهدد بالانفراط ... صراعات الاحزاب ـ الحلفاء ـ الدول حلفاء الامس اعداء اليوم .. (هذا هو حال المنطقة) لا ضابط محدد ، انما التبعثر والتشتت واختلاف الهوى بين الشرق والغرب هو السمة المميزة .

امام هذه المرحلة يبدو المشروع التوحيدي على الشرع اصلبها وامتنها ، مع ان ضعفه اليوم لا يمنع استقواءه بالغد ، الذي يجعل المستحيل اليوم غدا ممكنا ، والذي يكون اليوم صعبا غدا يكون يسيرا .

يبدو الاعتصام بحبل التوحيد امتن الاربطة واوثقها ، توحيد الكلمة وكلمة التوحيد اليس هذا هو نهج الانبياء والائمة الصالحين ! ؟

الا يبدو الخروج عنه خروجا على مبدأ التشيع : يبدو انه لن يبقى شيء من التشيع في نهج اذا اخلا من الاعتصام بحبل التوحيد .

موسى صوفان

السفير، ١١ حزيران ١٩٨٥، صفحة ١١